

هقيبا... الخاتمة

لم ينغص عليّ في بداية أمري سوى التهويل الذي أتلقياه في دروسي من الوقوع في الدائرة المختزلة وحمّاها اللعينة، كانت دروسي في تربية النّفس وطول النّفس على تحمل لأواء الطريق وعموما.. لم أبال كثيراً.. فسعادتي الكبيرة بحياتي الجديدة والرغبة في استكشاف هذا العالم الرحب والتلذذ بالثقافة السائدة في أرجاء القافلة، ناهيك عن فشو المثاليات الحاملة في أجواء الرحلة والأدبيات المسلية والمنتعة معاً، وانتهاء - أولاً وأخيراً - بالمدينة المنتظرة، كل ذلك صرّفني عن الدائرة بلّغ عن التفكير فيها وإن كنت بين الحين والحين أسمع عن بعض ضحاياها من حولي.. عن ذلك الاختزال المهيب.

انتبهت ذات يوم - وكان عمري في الثامنة - على زعيق رفيق لنا أن أدركوا نزاراً، فلقد غشيتة حمى الدائرة، ارتسم رعب وانزعاج شديداً على وجوه الرفاق، وكنت أول المبادرين فهرولت مسرعاً إلى حيث نزار، فلقد كان أخاً قريباً إلى نفسي، ولشد ما هالني التغير الواضح في سحنه حالما رأيته، بل إن عينيه انقلبتا إلى لون رمادي خالص توامض أحياناً بإشعاع عميق لا أدري كنهه، وحينما بدأت أخاطبه واتوسل إليه عبر ذكرياتنا كان يخاطبني بصوت هادئ.. خافت.. مستكين، كانت إجاباته مزيجاً من خطوب وهوى وحظوظ نفس اختلطت جميعها.. واندلقت على لسانه، وكان طوال وقته يركز نظره بقوة نحو نقطة ما.. نقطة بعيدة على يسار القافلة وفجأة انعكس وهج على عينيه واتسعت حدقتاه فانقلت من بيننا على حين غرة، مبتسماً ابتسامة غامضة، كان يخبئ في سيره وأنا - جاهداً - ممسك من ظهره، لم أستطع إيقافه البتة ولكانما تيار مغنطيسي هائل يجذبه إلى حيث أرسل بصره.. كان ينظر بشدة نحو تلك النقطة اللعينة.. ازداد توهُج عينيه وبدأ يهرف بكلمات متناثرة لا معنى لها: زمني أعيش.. مثاليات وحلم.. قيود.. وهم.. ككل الناس والبشر.. حريتي أين هي؟؟

لا أدري كيف التحقت بهذه القافلة الكبيرة.. أعرف عن ماضي القريب نتفاً من ذكريات حميمة، وكان ستاراً ثقيلاً أسدل على هذا الماضي وأحداثه، ولكنني أتذكر تماماً متى التحقت بهذه القافلة، والأرض التي وقفت عليها لأثب إلى ركويتي منذ شهرين أو أقل، نعم تفاعلت بسرعة كبيرة وتم تلقيتي مبادئ وأنظمة القافلة.

الأستاذ ناصر كان خصص للإشراف عليّ وثلة من - المستجدين - وهو أخ يكبرني بتسع أو عشر سنوات، دمث الخلق، ابتسامته متألقة دوماً في كل فصول السنة، في الحر والقر، وعند تفتح الزهور وذبولها، أحببناه بصدق، كان العمر - كما لقنت - في أدبيات القافلة يحسب بزم من الالتحاق!!

بقلم: عبدالعزیز قاسم
مكة المكرمة



أدركني التعب وتركتته وأنا ألهث وأصرخ بملء صوتي أن عد.. أيقنت في داخلي أنه لن يستطيع أو حتى أن يقف على الأقل فالجذب كان هائلاً يعجز أية مقاومة.. هذا إن قاوم!..

تأملت صديقي سائراً إلى هدفه حتى ابتلعه الظلام وتنهدت بعمق ورفعت رأسي للأعلى أرقب سماء الصحراء.. في مخمل أسود تناثرت تلك الدرر والجواهر.. ولدهشتي كانت نجمة في طريقها للأفول.. اختفت عن عيني تماماً.. تماماً.

يممت وجهي نحو القافلة علها قد أناخت.. لكنها - يا لعجبي - تسير الهوينى.. عجيب أمرها إنها عظيمة ولا شك وطويلة جداً إنها تسير من أحقاب وأحقاب..

جررت رجلي المتعبتين وأنا أفكر في هذه الدائرة اللعينة.. لقد أصابتني في الصميم.. وألهمت سرها أخيراً ولكني خسرت في المقابل مزعة من جسدي وشيئاً من روحي.. أه يحق لكل أن يجزع منها، إنك - باختصار - إذا ما غشيتك حمى هذه الدائرة كان ذلك إيذاناً بانتهاء رحلتك، ستكتشف أنك كنت تسير في منحى كبير.. كبير، لقد كنت تمشي على دائرة دونما تشعر وستعود في يوم ما إلى ذات النقطة التي انطلقت منها نقطة البداية النهائية، عندها تتغشاك هذه الحمى البغيضة وتكون واقفاً على محيط دائرة هائلة قطرها بسنوات عمرك، ثم تبدأ الرحلة الثانية إلى مركز هذه الدائرة، ستجد نفسك بواسطة تيار هائل منبعث من مركز الدائرة منجذباً رغباً عنك إليه.. رغباً عنك، والدائرة تبدأ في اختزال نفسها ومساحتها وتجرف وتختزل معها كل أيامك وعرقك وفرحك، وتعبك ولهوك وجهادك وأويقات عمرك كلها، حتى إذا وصلت إلى المركز العجيب ستجد أن جميع ذلك كله.. كله إلى نقطة.. نقطة واحدة لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع.. نقطة تافهة.

مع خيوط الشمس الأولى أرسلت بصري إلى حيث النقطة البعيدة التي رحل إليها نزار...

وجدت صديقي - القديم - وصل لتوه.. ضحك ضحكة مجلجلة ولوح تجاه القافلة ثم.. انكفأ في النقطة وتلاشى كل شيء.. لم يعد ثمة إلا الرمل والحصى.. الرمل والحصى.

- قلة الزاد كان ينبغي أن نتعهده.
- ويحك... الرحلة ولا شك طويلة.. قد يمضها البعض و...
- يقاطعه -: لا أظن.. أن فيها كل أنواع الترفيه ولو التفت على أحد مجالس السمر المتناثرة لسمت روحه،

واستحالت الحجارة الصلداً إلى جنان ونعيم، ولعاش عيشة جولد عليها بالسيف، ويحك ألا تشعر بذلك؟
- بلى... ولكن.. هل هو إذن الملل؟ أو استعجال المدينة؟ أو مشقة الطريق؟ أو...

- لم لا يكون الانكفاء هو السبب! لقد سمعت من مدرسي القديم عن مدرسه الأقدم: أن بعض الحكايات المتوارثة في ثقافة القافلة تقول: إن نقطة الانكفاء تختصر إلى مدينة الأشواق.. وأن من يلج فيها سيرى عجائب وفتنة..

- يزدرد ريقه -: لقد أطلنا.. هلموا نردد الحرز: نسالك يا رب الثبات.. نسالك الثبات...

انسحبت عن رفقتي وأنا أفكر، وتعمل الهواجس بنفسي، نعم، أعرف السبب لقد انفرد بنفسه ولم يعد يحضر مجالس السمر مع الرفقة، ربما أغضبه بعضهم وهذا يحدث في كل مكان وزمان، ولكن الوحدة كما لقنا شر، والشيء المحير هذه النقطة العجيبة.

وأي خبب غريب هذا الذي مشاه.. طالما رجوته - وأنا الأثير لديه - الوقوف والتمهل ولم يجبني، ويحه.. ألم يفكر - وهو صاحب عقل وحصافة - برصيده على الأقل بما اكتنزه من تبر.. وجواهر ودرر وأحجار كريمة، لقد تفنن في جمعها خلال سني رحلته.. شيء مذهل حقاً.. ومريب نقطة الانكفاء: هل حقاً من ينفذ من خلالها يسترجع ماضيه السحيق ويلج عوالم رحبة من الدهشة واللذة.. والمتاع!!

فلاردد الوصفة: اللهم يا مقلب القلوب ثبتني.. ثبتني واربط على قلبي...

كنت قد بلغت العاشرة من عمري وأنا أرتقي وأتقدم - في سعادة غامرة - إلى مقدمة الركب الذي لم يلح لي أبداً.. أبداً على الإطلاق، ولكني سعيد جداً بحياتي، وكم كانت جوهنا تطفر بشراً وسروراً بالتحاق الأفواج والأفواج، نهى المراكب ونكتري الإبل ونقدم تلك الزوادات لكل قادم.. فبغيرها يسقط، كنت في ذروة نشاطي وانفعالي أحذو للرفاق والإبل، انتبهت على أربع طعنات.. ثلاث منها في جنبي والرابعة بظهري.. كانت الأخيرة نجلاء تضحك ملء شديها سلافة قانية.. ترنحت قليلاً وأقعت.. كانت الشمس وقتها تطفل للمغيب.. تلفت، من فعل هذا بي؟! ما ثم إلا رفقتي حولي!.. سائرون في صمت مطبق...

«ابتلاء».. «ورفعة».. هكذا أقنعت نفسي مما - لُقنت ولُقنت - لم أستسلم أبداً، حاولت النهوض بعزيمة جديدة وروح أخرى.. حمى شديدة جثمت علي.. أقعدتني.. بدأ العرق يتفصد من جبيني، ويدي

ترعشان، وجسمي كله ينتفض، حاولت التملص منها والنهوض من جديد لكنها اعتنقتني بشدة، وقد عجزت عنها. صرخت بأعلى صوتي أستنجد، تلاشي صوتي كذرات في الصمت المطبق الرهيب.. لم يكن إلا عويل الريح يئن بأذني ويسف الرمل على وجهي، تحاملت وجلست القرفصاء، أنا ألثت من هذه الحمى.. عرق غزير يساقط من جسمي كله، تناولت القدر من خرجي لأسكب من زوادتي بعض الماء أبل ريقى على هذا الجمر في داخلي يخمد أو يخف.. يا للهول!! إشعاع غريب انعكس من على مرآة الماء.. عينان رماديتان أراهما.. ويلاه!! إنهما لي، وقفت من فجيعتي أجيل بصري إلى من كانوا للنوائب.. لا أحد.. نظرت تحت قدمي.. يا إلهي أرض أعرفها!! كيف عدت إليها وأنا منذ عشر تركتها خلفي!! البوصلة التي معي تقول إنني متجه في - استقامة - منذ التحاق، هل خرفت بوصلتي؟

.. هل كنت أسير على منحني؟.. لكن حتى لو خرفت بوصلتي العتيقة فقائد الرحلة السابق والحاضر واللاحق لن يني أحد منهم ولن يحيد عن الجادة.. تهاككت... وجثوث على ركبتي: هل كان وهماً ما قطعه؟.. هل كان حلماً ما عشته؟..

انتبهت على وهج نقطة على يسار القافلة وأحسست بشيء يقلعني ويجذبني إلى تلك النقطة، قدمي لا تطيعاني.. إنهما تخبان الآن بانتظام والقافلة تمشي في هذا الوقت الهويني.. سمع صراخي الآن وهرولت رفقتي.

- لا فائدة فمصييره كغيره..

- أصابته الحمى اللعينة.. لا، لست أنا - صرخت في داخلي -

تأسف الجميع وانصرفوا بالحوقة والاسترجاع والحرز ما خلا ثلاثة انغرزت أقدامهم في الرمل، وقفوا يلهجون ويجارون بدمع يغذ، وكلم متهدج.. نظرت إلى النقطة التي تجذبني لأفاجأ بأنها كبرت وكبرت وسدت الأفق وإذا بوجوه حبيبة قديمة في مدينتي الأولى تطل من كوة هناك.. يا إلهي جنان خضراء وأنهار تتقاطع ودوحة فيحاء.. بل إن عبيراً استنشقتة أهاج بقلبي كل الحزن.. ابتسمت ذات الابتسامة التي ابتسمها صديقي نزار.. وانطلقت إلى حيث النقطة المغرية..

وأفقت من سكرتي عندما وصلت منتصف المسافة على صراخ أحد الثلاثة: جواهر ك وأموالك وبغيرك أيها الأحمق!!!.. لكأن مسا كهربائياً انتفض له جسمي كله.. وتحركت في نفس غريزة التملك والشح.. وزاد أنني ألح الآن وجه أمي وزوجي... عابستين.. مشفقتين..

متألمتين.. انبعث صوت من بقايا زاد روحي يحتاج على استكانتي ويصرخ: أين قوة الإرادة يا هذا؟.. أين ما كنت تلقنه؟.. انبجس في قلبي تحد وبالكاد استطعت أن أدير ظهري للنقطة لأرى.. يالدهشتي!!.. القافلة تمشي الهويني.. وثمة قضبان وأسلاك شائكة تحول بيني وبينها.. لا، لن يثنيني كل هذا عن كنزي وما ادخرت..

استجمعت قواي وخطوات بضع خطوات نحو القافلة.. لكن أطرافي لا تطاوعني.. وزاد الأمر سوءاً أن قوة الجذب تضاعفت.. ولكأن تناسباً طردياً يحكمنا.. لم أياس، عضضت على شفتي وأنا أجاهد وأراوح في مكاني.. تقاطر الدم من شفتي.. لا فائدة.. أتقدم خطوات وتأخر مثلها.. وأنا في محاولاتي هبت ريح شديدة حملت على ظهرها سحباً دكناً سرعان ما أرسلت وأبناها وتحول زمني إلى ليل مدلهم..

صرخت بأعلى صوتي... لا... ليس هنا... مكاني ليس هنا... أبغض المنتصف.. أكره أن أكون بنصف وجه.. ونصف مبدأ.. ونصف روح.. ونصف قلب.. أكره الانصاف...

حفرت قدمي أثناء مراوحتي وصراعي مع التيار حفرة تحتي، وسرعان ما دبّت مع صراخي روح جديدة وإرادة أقوى فتقدمت وتقدمت وزاد لمعان البرق، وهزيم الرعد.. أحسست بالماء ينهمر على جسدي أنا فقط، وأنا أصر على بلوغ القافلة.. إلى حيث بعيري وكنزي، وفجأة انفصل عني ذارعي الأيمن ولحقته ساقى اليسرى.. طارا إلى حيث النقطة وانكفأ فيها..

سقطت في حفرتي وقد عييت.. أجهشت بالبكاء لأول مرة..

- هل قدرني أن أظل بنصف وجه.. ونصف مبدأ... أي إحساس بغيبض هذا الذي يكتنفني.. أي ألم يوخز في ضميري..

أية روح شوهاء هذه التي تسكن جسدي المتنافر... أية مشاعر ممضة هذه التي تجثم علي.. أي عذاب.. وصراع.. وهزيمة أنا أعيش.. أتمزق أشلاء وينخر في هامتي الزمن.. كهل.. أنا إذن.. وبعاهات...

أطلقت آهة زفرتها بالدموع والدماء وسقطت على ابتسامة البرق وقهقهة الرعد وإيقاع المطر. وفي صباح اليوم التالي: كان آخر بعير في ذيل القافلة يمشي الهويني.. يمر من أمامي ويرغي بصوت حزين.. حزين.. ولم أعد أرى سوى الرمل والحصى.. الرمل والحصى..

هويت برأسي..

من سيهيل علي التراب؟

كان ذلك همي.. الخاتمة.